عوالم المسخ القميئة

غاص بي الليل في الأعماق السحيقة. الشارع المظلم خال إلا منّي، ولكن الصوت الذي يناديني يعطيني الدافع للاستمرار. كان الهاتف قريبا بعيدا بين بين. انشقت الأرض عن رجل ذي ألف وجه. استوقفته علّه يدلني:

- أتسمح سيدي أن تدلني على مكان الهاتف؟

انطلقت أصوات كثيرة لم أدر مصدرها. تفحصت الوجوه الألف فلم أر فم أحدهم يتحرك. قالت الأصوات:

- الهاتف قاتل وقادر، لما تريده؟

- أمرني بالقدوم من بلدتي إليه.

- إذن فالويل لك، أعارضته في شئ؟

- لم أفعل سيدي، إني حتى لا أعرف كونه، ألك أن تدلني على كونه؟

انطلقت ألف ضحكة دفعة واحدة فهزت الكون من حولي. مات نصف البشر من أثر المفاجأة وأغشى على النصف الآخر خوفا. ابتلت ملابسي إثر اندفاع البول. كانت الوجوه كريهة. قال:

- الهاتف لا يعرف أيها الساذج، لكني أنصحك بالحيطة منه.

يبتعد عنّي بوجوهه فأناديه:

- لكنك لم تخبرني عن مكانه.

تنطلق أصوات مبتعدة:

– في الدرك الأسفل من المدينة ستمر بك امرأة شمطاء، نصف وجهها أبهى من البدر والآخر غاية في القبح، انتظرها هناك علّها تدلك.

وكان عليّ اختراق طبقات المدينة. فطبقة حمراء، وأخرى زرقاء، وثالثة سوداء، حتى وصلت الدرك الأسفل. شوارعه تموج بالتأوهات ما بين سحاق و لواط و جنس بين الاثنين، أحدق مبهوتا في الجميع. أسأل أحدهم:

– أرأيت العجوز الشمطاء ذات الوجهين سيدي؟

يرد الرجل الذي كان مشغولا بامرأة فاتنة بين فخذيه:

– ألا ترى أني أمارس تعبداتي؟ ابتعد عن وجهي حتى أفرغ.

كان يضاجعها بقسوة على مرأى من الجميع بينما هي مشغولة في شرب الخمر من شيء يشبه في جملته عضوا بشريا وبين الفينة والأخرى تصرخ صرخة مدوية من إثر قسوة الرجل. قالت تدلني:

– في منتصف الدرك الأسفل انتظرها، إنها على وشك القدوم.

و حينما مرّ ألف ليل أتت العجوز تنادي:

– يا معشر سكان الدرك الأسفل زيدوا من فعلكم، كونوا أكثر قسوة؛ فالرب يباركم.

تبينتها من جانبها الحسن فتخيلتها فاتنة. توقفت الدماء في عروقي حين رأيت نصفها الآخر. قالت:

– ماذا تريد أيها الغريب؟

- أود الوصول إلى الهاتف، فهو يناديني.

- طريقك صعب أيها الغريب، لكني سأدلك بشرط أن ترضع من ثديي.

- ولما أفعل ذلك؟

- انه شرطي، إما قبلته أو لتذهب إلى حال سبيلك.

وأخرجت ثدييها فتساقط من أحدهما دم قان ومن الآخر صديد. ملأني الغثيان. قلت:

- سيدتي، لا أستطيع.

ابتعدت قائلة:

- اذهب إلى حال سبيلك.

- لكني أريد الوصول.

جاء صوتها متباعدا:

- في آخر هذه الدنيا، عند الحدود الفاصلة بين الحقيقية والخيال سيمر بك رجل له وجه خنزير قمئ، إذا تقيأت أمامه سيلتهم القئ ثم يدلك.

وعدت إلى اختراق عوالم متناقضة. منها المائية والنارية والهوائية والمادية حتى وصلت. كان الرجل الخنزير يجلس تحت شجرة يسيل منها سائل مقزز فيلعقه. حاولت القئ، فتقيأت ديدانا و ثعابينا وسائلا في لون أخضر وأصفر. أتقزز من نفسي. يسرع الرجل الخنزير بلعق القئ مستمتعا. يسألني:

- ما حاجتك أيها الغريب؟

- مكان الهاتف.

- انه لا يوجد عند الخط الفاصل، فلما قدمت؟

- لأنك تعرف مكانه.

- إني لا أعرفه لكني أعرف من يدلك شريطة أن تعطيني قلبك.

- سأعطيك جزءا من روح القلب، أتوافقني؟

بعد تفكير وافق قائلا:

- عند حدود الأخضر والأصفر ستجد مسجدا عتيقا، إن استطعت أن تصلي فيه وراء إمامه ستعرف أين تجده.

ووصلت بعد اختراق حجب الظلام. يرتفع صوت المؤذن سامقا. كان الناس شديدي المسخ. يتحركون إيابا وذهابا دون الاقتراب من المسجد. أدخله خاشعا. أنتظر إقامة الصلاة لكنه لم يفعل. كان المسجد شاغرا إلا منّي و منه. نظر إليّ الشيخ متعجبا. أقول:

- ألن تقيم الصلاة؟

ارتسمت علامات الدهشة على قسماته قائلا:

- ماذا تقصد بقولك أيها الغريب؟

- أقصد الصلاة.

- من أي عالم أنت؟ ذاك أمر لا نعرفه ولم نسمع عنه من قبل، وهذا المكان لا يدخله غيري، فلما دخلت؟

- كي أستطيع الوصول للهاتف.

- أخرج من هنا وابحث عنه في مكان آخر.

ثم بصق عليّ ليقول:

– قد يكون وهما أيها الغريب الملعون. أتزعجني في خلوتي؟!

أخرج حائرا. أنظر حولي فأرى رجالا ذوي نهود عارية ونساءً لها من الذيول ما لا حصر له. لفتني دوامات عجيبة. تزايد اختناقي بينما انطلقت من عقلي إشارات تنبيه خطرة. أسرع بالهروب إلى الركن القصي من الكون. أفتح صدري مخرجا قلبي. أوقفه عن النبض ثم أعيده حيثما كان وأغمض عينيّ راضيا.